

والنهي والاستفهام ، إلى الزجر والتعجب والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار ، والعدول بالتعبير عن أصل استعماله في اللغة عن طريق الاستعارة أو المجاز أو الكناية والرمز .
 ووصل إلينا الشعر الجاهلي بعد أن مر بمراحل طفولته التي غابت عنا ، مُحكَم الإيقاع متسق النغم سخي الإلهام . تمضى القصيدة منه حتى تجاوز أكثر من مائة بيت عدداً ، دون خلل في نسق النظم وضوابط الإيقاع .

وبلغت العربية من ذلك كله ، مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة ، استطاع معه العلماء في عصر التدوين ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان وضوابط العروض .
 وفي الجاهلية ، حددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جهود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يفرها ويمسح أصلها .

فيقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيق باب الأخذ من الألسنة التي خالطتها بطريقة أو بأخرى ، صوتاً للسانها . فاستغنت إلى أقصى المدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي معاني ما احتاجت إليه ، أو ما استملحته وانتخبته من الألفاظ الأعجمية . ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية ، إما بإلحاقه بأقرب صيغ الفصحى إليه ، أو بتغيير طريقة نطقه ، إشعاراً بتعريبه . وقد استطاع علماء العربية في القرن الثاني للهجرة ، وما بعده ، أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرب والدخيل ، تشهد بأن الأمر لم يُترك لفوضى العشوائية والارتجال ، بل خضع لنهج واضح التزمته العربية فيما تأخذ من الألسنة التي خالطتها^(١) .

ثم كان أن مارست العربية في جاهليتها المعروفة لنا تاريخياً وتراثياً ، حركة تطور باللغة الأهمية ، إذ اتجهت إلى استصفاء لغة مشتركة ، شبه رسمية ، تلتقي بها القبائل على اختلاف لهجاتها ، فيما يجاوز النطاق المحدود للقبيلة . وقد اختيرت لغة قريش ، بحكم موضعها من أم القرى والبيت العتيق ، وبما أتيح لها على المدى الطويل من انتقاء مختار الألفاظ والصيغ من لغات القبائل العربية الوافدة عليها في مواسم الحج الدورية التي كانت في الوقت نفسه مواسم أدبية شعرية ، وأسواق تبادل لغوي وتجاري . قال « ابن فارس » في كتابه (الصاحبي) في فقه اللغة :

(١) انظر : الزهرى علوم اللغة السيوطي . ومعه كتابي (لغتنا والحياة) . المعارف